المبحث الثالث

دور تأليف الكتب

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إعجاز القرآن للباقلاني

الإمام الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ)[1]:

هو أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني، ولد بالبصرة وتلقى العلم من أعلامها ورحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها وأقام بها حتى قضى نحبه في شوال سنة (٤٠٣هـ) ومن أهم الأعمال التي قام بها في حياته التدريس والتأليف، ومن أهم مؤلفاته كتابه المشهور في «إعجاز القرآن».

والباقلاني إمام من أئمة المتكلمين، وشيخ من شيوخ الأشاعرة، وقد جمع إلى هذا كثيراً من جوانب المعرفة، وكتابه يدل بحق على علو كعب الرجل، وسعة إطلاعه، فضلاً عن إنَّه إمام من أئمة علم الكلام، فهو كذلك إمام من أئمة اللغة أدباً وشعراً وبلاغة ونقداً.

وقد وجد الباقلاني الملاحدة في عصره يعدلون القرآن ببعض الأشعار، ويوازنون بينه وبين غيره من الكلام، حتى إنَّهم قد فضّلوا الشعر عليه. فكان لزاماً على مثل هذا العالم الأديب أن يدفع تلك الأباطيل عن كتاب الله في الوقت الذي رأى فيه غيره من أهل العلم قد قصّر في الدفاع عنه. ولكنه يعود فيلتمس العذر لتقصير البعض، لأنَّ تحديد وجه الإعجاز «مما لا يمكن بيانه إلا بعد التقدم في أمور عظيمة المقدار دقيقة المسلك لطيفة المأخذ»[2].

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان: ٤/٢٦٩.

(٢) إعجاز القرآن: ٥.

فكان من الطبيعي قبل أن يتحدث الباقلاني عن فكرة الإعجاز، وعن الوجوه المعجزة أن يتعرض لبعض المسائل التمهيدية، كبيان شرف القرآن الكريم ووجوب العناية من جانب المسلمين، وبيان أن هذا القرآن هو المعجزة الدالة على صدق محمد ﷺ. وبيّن أن الأصل في الدلالة على إنَّ القرآن معجزة هو تحقيق النص القرآني، والعلم يكون القرآن المرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي ﷺ «والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به»[1].

◻ أشهر مؤلفاته:

كتب الباقلاني الكتب الكثيرة في بيان إعجاز القرآن دافع فيها عن حرمة الدين، ذاباً عن الكتاب والسنّة، راداً كل ما يجده مما يلقيه خصوم الإسلام من شبهات ومما يوحون به من شكوك، ومما ينفثونه من أباطيل ومن كتبه ذات الشأن والقيمة العليا هو[2]:

١- كتاب «إعجاز القرآن»:

يعدُّ كتاب (إعجاز القرآن) من أوسع الكتب التي أُلّفت لبيان إعجاز القرآن. وقصد إلى البحث مواجهته، وذكر كل قول يحتمل أو يرد على الإعجاز. وأكثر من الفصول التي تعرّض فيها لآراء السابقين ومناقشتها والرد عليها -إنْ خالف رأيه آرائهم- وذكر أهمية البحث في إعجاز القرآن؛ لأنَّ نبوة محمد ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن[3].

---

(١) إعجاز القرآن: ١٦، وينظر: الإعجاز في النص: ٤١، والإعجاز البياني واللغوي: ٣٢/١.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٥٢.

(٣) ينظر: الظاهرة القرآنية: ١١.

وقد تضمن كتاب (إعجاز القرآن) أهم أفكاره عن فكرة الإعجاز في النص القرآني، وهي كالتالي:

أ. عدّ القرآن الكريم المعجزة للنبي ﷺ عبر الأجيال إلى يوم القيامة، وقال: إن تحدي الإنس والجن بهذا القرآن قائم إلى يوم الدين والحساب.

ب. وقال: إنَّ اقل المعجز في القرآن هو أقصر سورة منه.

ج. إنَّ القرآن معجز بأسلوبه وبلاغته، وأنَّه تحدى العرب فعجزوا عن معارضته[1].

ولهذا نجد إنَّه لم يشتهر كتاب في الإعجاز ككتاب إعجاز القرآن، فلقد ظل على مدى القرون السالفة المرجع الوحيد لهذه المادة، بل إنَّ كثيراً من المختصين بالدراسات القرآنية لم يعرفوا غير هذا الكتاب. ولقد اشتمل كتاب (إعجاز القرآن) على موضوعات متعددة، بعضها جوهري في قضية الإعجاز وذلك لوجوه إعجاز القرآن، وكونه معجزة النبي محمد ﷺ والتحدي به، وبعضها بعيد عن قضية الإعجاز لا يتصل بها إلا من سبب بعيد كحديثه عن نقد الشعر وتحليله لكثير من القصائد الشعرية، وموازنته بين أسلوب القرآن، وبعض خطب النبي الكريم وللصحابة ولغيرهم -رضي الله تعالى عنهم-. وبعضها وسط بين هذا وذاك يتصل بموضوع الإعجاز، وذلك كحديثه عن السجع ونفيه من كتاب الله تعالى، وكذلك حديثه عن الإعجاز نجد فيه تارة يكون ذا طابع أدبي بياني، وتارة أخرى ذا صبغة كلامية تتصل بنظريات المتكلمين وأساليبهم[2].

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ١٩٢.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٥٣.

٢- كتاب «التمهيد»:

وقد ألّفه لابن عضد الدولة. وهو من أهم الكتب الكلامية التي تعلّق بها أهل السنّة والجماعة، لاشتماله على أدلة المذهب في قضايا علم الكلام والعقائد وأدلة الجدل التي تعضد مذهبهم، وقد طبع الكتاب عام ١٣٦٦هـ.

٣- كتاب «هداية المسترشدين»، «والمقنع في معرفة أصول الدين».

٤- كتاب «الفرق بين معجزة النبيين وكرامات الصالحين»، «مناقب الأئمة».

وغيرها من الكتب المفيدة إلا أنها ناقصة الأجزاء ولم يطبع منها شيء للآن. وأغلبها كتب تتعلق بأصول الدين والعقائد والذب عن القرآن الكريم وعن مذهب أهل السنّة والجماعة[1].

❑ وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني:

تتلخص فكرة الإعجاز عند الباقلاني في وجوه ثلاثة نقلها عن أصحابه من الأشاعرة ومن وافقهم وهذه الوجوه هي:

الوجه الأول:

ما تضمنه القرآن من الإخبار عن الغيوب، التي أخبر عنها القرآن قبل أن تحدث، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه. وقد ساق لذلك من الآيات والأدلة ما يؤيد هذا الوجه، وكان الباقلاني متبعاً في هذا الوجه لما سبق أن قاله الأقدمون، وكان الرد عليه يتلخص في:

إنَّ القرآن أول ما نزل قد بهر وسحر، وأعجز، مع إنَّه لم يكن يحمل في آياته الأولى مثل هذه الأخبار عن الغيوب، ثم إنَّ التحدي للإتيان ولو بأقصر

(١) ينظر: مناهج في تحليل النص القرآني: ٤٧.

سور، ينفي في مضمونه أن يكون الإخبار عن الغيوب موضع اعتبار في الإعجاز. فكان الأولى بالباقلاني وغيره أن يركزوا جهدهم فيما هو أدق وأدخل في باب الإعجاز، ولعل ما يحمد عليه الباقلاني أنه لم يقل بهذا الوجه وحده بل قاله ضمن وجوه أخرى دالة على الإعجاز[1].

ومن الآيات التي ساقها الباقلاني في هذا الوجه:

١- ما وعد الله تعالى نبيه ﷺ، أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[2] ففعل ذلك.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله، من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه.

٢- قال الله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾[3] فصدق فيه.

٣- وقال تعالى في أهل بدر: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ ﴾[4] ووفى لهم بها وعده.

وغير هذه الآيات التي يتضمنها القرآن، من الإخبار عن الغيوب، كثيرة جداً[5].

---

(١) ينظر: معترك الأقران: ١٨٦/١، والنقد الأدبي: ٩٨/١، ونظرات في الإعجاز: ٨٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٧.

(٥) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٠.

الوجه الثاني:

مما فيه من أنباء الأولين وقصصهم، ومعرفة كتب المتقدمين، وأقاصيصهم، وأنبائهم وسِيَرهم، وأنَّه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنَّه كان أُمياً لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين[1]، وأنبائهم وسِيَرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث، من عظيمات الأمور ومهمات السِيَر، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه فذكر قصة آدم عليه السلام والتي هي معجزة له ﷺ من ابتداء خلقه وما واجهه من أحداث إلى توبته، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه، وكذلك ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء -صلوات الله عليهم-[2] ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وجملة الأخبار، ولا على ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنَّه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي[3] ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[4] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾[5].

وهذا الوجه لا يعتبر نصاً في الإعجاز، وإنما هو دليل على صدق نبوة

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن وترجمته: ٥٧.

(٢) ينظر: معترك الأقران: ١/١٨٦.

(٣) ينظر: النقد الأدبي: ٩٨، ونظرات في الإعجاز: ٨٦.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٠٥.

محمد ﷺ وأعظم تأييد من الله لرسوله الأمي أن يمدّه بهذا القرآن العظيم حتى يخرس ألسنة المتقولين.

ونلاحظ أنَّ الوجه الأول والثاني هما وجه واحد يدخل تحت: الإخبار عن الغيوب.

الوجه الثالث:

أنَّه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُحكم عجز الخلق عنه[1]. فهو الوجه الذي قامت عليه دراسة الباقلاني في محاولته للوقوف على سر الإعجاز الكامن في القرآن؛ لذا اتجهت همّته إلى تفصيل هذا الوجه وتناول موضوع الإعجاز في دراسة عملية مستفيضة. لذلك كانت فكرة النظم عند الباقلاني تعتمد أساساً على الخصوصية التي ينفرد بها الأسلوب القرآني في نظمه ويتميز بها عن غيره، ومن ثم يوضح أن الذي يشتمل عليه بديع النظم المتضمن للإعجاز وجوه:

١- منها ما يرجع إلى الجملة (جملة القرآن)، وذلك أنَّ نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب خاص به، يتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد[2]. ولقد حصر الباقلاني فنون القول عند العرب في هذه الأنواع الخمسة: (١) الشعر (٢) الكلام الموزون غير المقفى (٣) الكلام المعدل المسجع (٤) الكلام المعدل الموزون غير المسجع (٥) الكلام المرسل.

ويشير الباقلاني إلى دور الصنعة في الأنواع الأربعة الأولى، أما النوع الرابع وهو المرسل من الكلام فهو الذي لا يتعمل ولا يتصنع له... ومع ذلك فأسلوب

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ٢١، والانتصار لنقل القرآن: ٢٠-٢١، وإعجاز القرآن وترجمته: ٨٣.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٣٥.

القرآن يتميز في تصرفه عن هذه الوجوه جميعاً. ولهذا نجد القرآن يخرج عن أصناف كلام البشر وأساليب خطابهم وأنَّه خارج عن العادة وأنَّه معجز. وهذه خصوصية، ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه[1]. وعليه نجد مخالفة نظم القرآن لجميع كلام العرب؛ فليس هو شعراً ولا نثراً مسجوعاً أو غير مسجوع[2] ولهذا كانت النتائج التي توصل إليه الباقلاني والرماني نتائج واحدة فكل منهما ينكر السجع في كتاب الله، لأنَّ السجع مما عرفته العرب، لذا عقد الباقلاني فصلاً لنفي السجع، وآخر لنفي الشعر عن كتاب الله تعالى[3].

٢- ومن وجوه النظم القرآني: أنَّه ليس للعرب كلام مشتمل على مثل هذه الفصاحة والبراعة، والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا القدر، وإنَّما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة وإلى شاعرهم من قصائد محصورة[4]، وهذا المعنى يرجع إلى القضية البلاغية في القرآن من حيث أسلوبه وألفاظه وكونه نسقاً واحداً. فالباقلاني يرى أن القرآن الكريم نسق واحد في البلاغة، ليس بين آياته تفاوت واختلاف، وهذا ما ذهب إليه أكثر العلماء، فالقرآن على طوله متساوٍ في الفصاحة والبلاغة، وقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[5] وهذا

(١) ينظر: اعجاز القرآن: ٣٤، وينظر: النقد الأدبي: ٩٩.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٣٥، ومعترك الأقران: ١/١٨٧.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٢، وإعجاز القرآن: ٥٥.

(٤) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٢، والنقد الأدبي: ٩٩.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

ما لا نجده في كلام الفصحاء والبلغاء، فإذا أخذنا مثلاً ديوان شعر لأكثر الشعراء إتقاناً، سنجد قصائده متفاوتة من حيث بلاغتها، فقد يجود الشاعر في قصيدتين أو ثلاث، وكذلك إذا أخذنا القصيدة الواحدة فلن نجد أبياتها سواء، أما القرآن الكريم فأوله وآخره سواء في بديع النظم وعلو الأسلوب[1].

ونجد إن الله ﷻ أخبر في كثير من الآيات القرآنية الكريمة أنَّ كلام الآدميين إنَّ امتد، وقع فيه التفاوت، وبان عليه الاختلال[2].

٣- نظم القرآن لا يتفاوت ولا يتباين: ومعنى ذلك أنَّ عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما ينصرف إليه من الوجوه التي ينصرف فيها، من ذكر قصص، ومواعظ، وحكم، وإنذار، ووعد، ووعيد، وتبشير، وتخويف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وغير ذلك[3]. وأنَّ موضوعات القرآن جميعها على ما بينها من اختلاف لا نستطيع القول بأنَّ بعضها أفصح من بعض، فكما إنَّ آيات القرآن لا تتفاوت فكذلك موضوعاته، فالشاعر لا يستطيع أن يجود في موضوعات متعددة، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز الهجو دون المدح، وقد يجود أحدهم إذا خاف ورهب، وآخر إذا انتشى وطرب، وثالث إذا أعطي ورغب، ولهذا قالوا: أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وأجناس الكلام.

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني: ٢٩١.

(٢) ينظر: مباحث في إعجاز: ٧٩.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٣، والانتصار لنقل القرآن: ٢٣.

ونجد إنَّ القرآن الكريم على الرغم من كثرة موضوعاته فهي في رفعة شأنها سواء من جهة، ومن جهةٍ أخرى رغم الأحوال المتعددة التي كان عليه الرسول الكريم، هو يترل عليه الوحي، فإنَّ ذلك لم يغير من أسلوب القرآن شيئاً. ولهذا فإنَّ هذا الوجه الثالث يختلف عن سابقه. فقوامه أنَّ هذا القرآن الكريم رغم تعدد موضوعاته إلا إنَّه في أعلى درجات البلاغة[1]. ومتى تأمّل الإنسان شعر الشاعر البليغ رأى التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي ينصرف فيها، فيأتي غاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره؛ ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم، لأنَّه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولاشك في تبريزهم في مذهب النظم. فمن الشعراء من يجود في الرجز، ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً ومنهم من ينظم القصر، ولكن يقصر تقصيراً عجيباً، ويقع ذلك من رجزه موقعاً بعيداً، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاناً بيّناً، ومنهم من يجود بضد ذلك. فإذا تأملنا نظم القرآن، وجدنا جميع ما ينصرف فيه من الوجوه التي ذكرناها، على حد واحد، في حسن النظم، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط على المترلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا[2].

١- كلام العظماء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل، والعلوّ والترول، والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، والقرآن الكريم مع كثرة موضوعاته التي هي نسق واحد فإنَّ هناك وجه آخر يدل على إعجازه، وهو ما فيه من جودة وإحكام الرصف، ذلك أن أي بليغ

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ٥٥-٥٦، والنقد الأدبي: ١٠٠.

(٢) ينظر: معترك الأقران: ١٨٧/١.

حين يتكلم في موضوع ويريد الانتقال إلى غيره نشعر أنَّ هناك عجزاً في الانتقال، وقد وصف كثير من الشعراء بالنقص عند التنقل من معنى إلى آخر، والخروج من باب إلى سواه. حتى إنَّ أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه، وحسن وصفه، ورقة طبعه، عدم تجويده في الانتقال من النسيب إلى المديح[1]. وعليه فإنَّ القرآن الكريم على اختلاف فنونه، وما ينصرف فيه من الوجوه والطرق المختلفة، فإنَّه يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، فهذا أمر عجيب تبين فيه الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف[2] فالقرآن الكريم يجمع بين المختلف فيجعله مؤتلفاً وينقلنا من الموضوع الواحد إلى الآخر دون الشعور بهذا الانتقال، فمثلاً سورة العلق لا يخطر في بالك عند قراءتها أنَّها نزلت مفرقة، وذلك لما نجده بين آياتها من إحكام السبك وجودة الرصف والربط، مع إنَّ الآيات الخمس الأولى هي التي نزلت أولاً، ونزل القسم الآخر بعد سنتين، وكذلك سورة البقرة التي نزلت في عشر سنين، ومع ذلك نجدها من أول آية إلى آخر آية مترابطة متناسقة[3].

٢- إنَّ نظم القرآن وقع موقعاً من البلاغة يخرج عن عادة الجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا. وقال ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ

(١) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن: ٨٠.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٣٨، والانتصار: ٢٣، والنقد الأدبي: ١٠٠.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٥٦.

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

٣- إنَّ الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح، والتجوّز والتحقيق ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجود في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة[2].

٤- ومن الوجوه التي يشتمل عليها بديع النظم القرآني: أنَّ المعاني التي تضمنه في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والردّ على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في البراعة، مما يتعذر على البشر، فيشير الباقلاني هنا إلى إن قدرة النظم القرآني على التوفيق بين المبتكر الرائع من اللفظ والجديد من المعاني، دون إخلال بالبلاغة، كل هذا مما يختص به الأسلوب القرآني ويتميز به عن غيره من الأساليب[3].

وأوضح الباقلاني أنَّ المراد بالمعاني هي معاني القرآن، فالمعاني التي جاء بها القرآن لا يستطيع أحد من الناس الإتيان بها، ويعني أيضاً بالمعاني هنا الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم، وهي الموضوعات الفكرية سواء أكانت الموضوعات تشريعية أم عقدية، وسواء أكانت حجاجاً ورد بشبهات أم حديثاً عن مبدأ خلقي، وقضية تربوية، وهذه المعاني القرآنية مبتكرة؛ لأنَّ كثيراً من موضوعات القرآن كانت بكراً لم تكن مما عرفه الناس من قبل، لا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) إعجاز القرآن: ٤٢، والإعجاز البياني: ١٢٩٢.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٤٣، والنقد الأدبي: ١٠١.

في الكتب السماوية ولا في التشريعات القانونية[1].

٥- من وجوه إبداع نظم القرآن، أن الناظر في كلام الناس لا يجده سواء، فربما وجدنا في الفقرة أو الأبيات من الشعر كلمة رائعة توجه إليها الأنظار، وتجتذب إليها الأذهان أكثر من غيرها، فهذه الكلمة إنَّما هي درّة العقد في الفقرة أو القصيدة لكن القرآن الكريم ليس كذلك، بل كل كلمة منه إذا وضعت مع غيرها تجدها درّة عقد وحلاوة شهد. لذلك يقول الباقلاني: «إذا وضعت الكلمة القرآنية في كلام كانت هذه الكلمة منادية على نفسها بالروعة ممتازة على غيرها»[2].

٦- إنَّ الحروف التي يبنى عليها كلام العرب ثمان وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً، وهي نصف الحروف الهجائية، ولكن لكل حرف صفات خاصة به، وصفات الحروف كثيرة، ذكر علماء التجويد منها سبع عشرة صفة، فإذا نظرت إلى الأحرف المقطعة في فواتح السور وجدت أنها اشتملت على جميع الصفات، وقد قسموها إلى حروف مهموسة، وأخرى مجهورة، فالحروف المهموسة مجتمعة في قولهم: (فحثه شخص سكت) فهي عشرة حروف: الحاء، والهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين. وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة. وضد الهمس الجهر، وستجد حروفها ذكرت في

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ٤٣، وإعجاز القرآن: ٥٧.

(٢) إعجاز القرآن: ٤٣.

فواتح السور، وكذلك الشدة والرخاوة والذلافة والقلقلة، فليست هناك مجموعة ذات صفة واحدة إلا وذكر نصفها في فواتح السور، وهذا ترتيب بديع يدل على الإحكام[1].

٧- أما الوجه العاشر والأخير من وجوه إبداع النظم: أنَّ القرآن مع ما له من بلاغة إلا إنّه سهل ميسّر، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، ليس فيه ما يصعب على النطق أو ما تنفر منه النفس وتمجّه، فالقرآن كله سهل ممتنع، سبيله ميسر، فالقرآن نقرؤه ولا نشعر أنه بحاجة إلى تفسير[2].

وبهذه الوجوه العشرة يلخص الباقلاني فكرة الإعجاز، ومن خلالها يتبين مدى تركيزه على إعجاز القرآن بالنظم والتأليف، وكذلك أبرز دور النظم، كأهم ظاهرة تجلّت في أسلوب القرآن، وصلة النظم القرآني بنظوم كلام العرب، والفرق بينه وبين السجع ووزن الشعر.

❑ الموازنة بين النظم القرآني والنظم البشري:

لقد قام الباقلاني بعمل موازنة بين النظم القرآني والنظم البشري وكان يرى أن الموازنة لا تصلح عاملاً للوصول إلى نتيجة مسبّقة، بل تجري لتصل إلى نتائج متوقعة، وأخرى غير متوقعة، ولكي يتحقق هذا، لابد من توافر أركان المقارنة من اشتراك طرفيها في أكثر من جانب، كأن تكون بين شاعرين، أو كاتبين معاصرين، ولهما اتجاه فني واحد أو قريب، وظروف فنية متشابهة... الخ.

---

(١) ينظر: المنير في أحكام التجويد: ٤٧، وينظر: إعجاز القرآن: ٥٨-٥٩.

(٢) ينظر: مداخل إعجاز القرآن: ٣١، والنقد الأدبي: ١٠٢.

وأنَّ إثبات خروج النظم القرآني عن المعهود من كلام العرب، لا يتأتى بالموازنة، وإنما بالكشف عن الإعجاز الذي تحقق في جعل أداة التعبير عن الذات البشرية صالحة للتعبير عن الذات الإلهية وحكمة الربوبية، في جعلها تخرج من الخصوص إلى العموم.

ولهذا نجد إنَّ الباقلاني دقيق في أغلب أحكامه، فمثلاً في تحليله لقصيدة البحتري، يقول: «إنما يُوَازَنُ شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته، ومن أهل عصره، ومن هو في مضماره، أو في مترلته...، ونظمُ القرآن عالٍ عن أن يعلق به الوهم، أو يسمو إليه الفكر، أو يطمع فيه طامع ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1]»[2].

نجده يقول هذا، ويندفع في موازنة أدّت به إلى الاستعانة بكل ما يتصور أنه يؤدي إلى النتيجة التي افترضها قبلاً، فيستعين بالتراث، وبالجدل، وبمختلف المقاييس النقدية[3].

❑ تأثر تذوق الباقلاني بالوعي الديني:

لا غبار أن يتذوق العالم الفقيه فن الشعر، ولكن عليه أن يدرك أنَّه أمام قول الشاعر يصور له ما أحس به، ويمزج بين الواقع والخيال، ويستخرج من المعطيات الملموسة صوراً غير ملموسة، فلا يجب علينا أن نحكم عليه بالصدق الأخلاقي، أو نطالبه بالوعظ والإرشاد عن طريق قصيدته، طالما أنَّه لا يدعو إلى رذيلة.

وامرؤ القيس حين قال:

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٤٢.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٤٣، وينظر: أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة: ٢٦.

(٣) ينظر: مناهج في تحليل النظم القرآني: ٦٠-٦١.

إذا بكى من خَلفِها انصَرَفَتْ لَهُ   بشِقٍّ وتحتي شِـــقُّها لم يُحَـــوَّلِ

لم يقصد الشاعر إغراء الشباب، ولا إفساد أخلاقهم، ولكنه أراد أن يصوّر مدى تأثيره على النساء، وفروسيته، وفحولته.

ثم يأتي الباقلاني، ويتسرب وعيه الديني إلى تذوقه فيقول: «البيت الأول غاية في الفحش، ونهاية في السخف، وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح، ويذهب؟!(1) هذه المذاهب.

وقول البحتري في وصف السيف:

يتناول الروح البعيـــد مناله‍ــا   عفواً، ويفتح في القضاءِ المقفلِ

بإبانةٍ في كلِّ حتـــفٍ مُظلِـــمٍ   وهدايةٍ في كلِّ نفسٍ مَجهَـــلِ

فيرى الباقلاني أنَّ: «القضاء المقفل» وفتحه، كلام غير محمود، ولا مرضي، واستعارة لو لم يستعرها كان أولى به،...، إن شيطانه حيث زين له هذه الكلمة، وتابعه حين حسّن عنده هذه اللفظة، لخبيث مارد، ورديء معاند أراد أن يطلق أعنّة الذم فيه(2).

ويرى الباقلاني: «أنَّ الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يُتَخَيَّر من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإنابة عن المعنى المطلوب»(3) ويميل إلى الاعتدال في الصنعة بين الإفراط والتفريط(4)،...«وإنما فُضِّلت العربية على

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ١٦٧.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٣٦- ٢٣٩.

(٣) المصدر السابق: ١١٧.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ١١٤.

غيرها لاعتدالها في الوضع»[1].

هذا هو الباقلاني الذي وازن بين النظم القرآني والنظم البشري، ليثبت إعجاز الأول، وتفاوت الآخر من حيث السبك، واللفظ، والفكرة. والذي احتكم إلى الذوق الفني، لكنه لم يكن خالصاً لوجه الفن، بقدر ما كان مستخدماً للدفاع عن قضية الإعجاز[2].

المطلب الثاني: إعجاز القرآن، القاضي عبد الجبار الهمذاني

القاضي عبد الجبار الهمذاني (ت: ٤١٥هـ):

هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد آبادي، أبو الحسين، قاض، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره ويلقب قاضي القاضي، توفي عام ٤١٥هـ، وله من الكتب: «تنزيه القرآن عن المطاعن»، و«الأمالي».

وهو من أئمة المعتزلة خاصة، والمسلمين عامة، تأثر بشيوخ الاعتزال وبخاصة الجبائيين أبا علي وأبا هاشم، وإن لم يتلق عنهما مباشرة، والذي يهمنا حديثه عن إعجاز القرآن في كتابه «المغني في أبواب التوحيد والعدل» فحينما نتصفح هذا الكتاب نجد إنه جُلّ حديثه فيه عن الإعجاز، وقد عرض الهمذاني لقضايا متعددة، فقد تحدّث عن الخبر وما يتصل به، ثم تحدّث عن الرسالة والرسول، وعن تواتر الذي ثبت به القرآن. وقد قال عن كلمة (الإعجاز): ومعنى قولنا في القرآن إنّه معجز أنّه تعذّر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي قد اختص به[3]. ويتحدث أيضاً عن

---

(١) المصدر السابق: ١١٨.

(٢) ينظر: مناهج في تحليل النظم القرآني: ٨٦-٨٧.

(٣) ينظر: طبقات المفسرين: ٥٩، وينظر: قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني: ١٧.

الفصاحة، فيبيّن أن الكلام يكون بجزالة لفظه وحسن معناه، ولابد من اعتبار هذين الأمرين، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً، والفصاحة لا تظهر في الكلمات المفردة، وإنَّما بضم هذه الكلمات بعضها إلى بعض، وتظهر فصاحة الكلام بثلاث جهات هي:

١- **الجهة الأولى**: اختيار الكلمة نفسها.

٢- **الجهة الثانية**: حركة هذه الكلمة من حيث الإعراب.

٣- **الجهة الثالثة**: موقع هذه الكلمة تقديماً أو تأخيراً إلى غيرها من الأساليب[١].

وهذه بعض الأمثلة التي توضح كلام القاضي عبد الجبار حول هذه الجهات: منها قول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾[٢] فقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ تظهر فيه الجهات الثلاث التي تحدّث عنها القاضي عبد الجبار، فالجهة الأولى تتمثل في اختيار كلمة (ريب)، دون غيرها من الكلمات كالشك والمرية، وأما الجهة الثانية فمجيء كلمة (ريب) مبنية على الفتح، وهي اسم (لا) النافية للجنس، ولم تأتي مرفوعة، فأما الجهة الثالثة، فهي تقديم كلمة (ريب) على الجار والمجرور (فيه) ولاشك أنَّ لكل واحدة من هذه الجهات الثلاثة حكمة بيانية. فكلمة (ريب) تعطي ما لا تعطيه كلمة (شك) فإنَّ (الشك) تردد النفس بين شيئين، ولكن (الريب) شك مع تهمة وخلق واضطراب، ومجيئها مبنية على الفتح يدل على نفي الريب نفياً تاماً، وأما الجهة الثالثة فلأنَّ تقديم كلمة (ريب) يعطي معنىً غير المعنى الذي تأخّر فيه،

---

(١) ينظر: المغني: ١٦/١٩٩.

(٢) سورة البقرة، الآيتين: ١-٢.

فمعنى (لا ريب فيه)، نفي الريب عن القرآن دون التعرض لغيره من الكتب، ولكن لو قال: (لا فيه ريب) لكان المعنى إثبات الريب في غيره من الكتب.

إنَّ الفصاحة التي أشار إليها القاضي عبد الجبار، ليست هي الفصاحة التي استقر عليها علماء البلاغة المتأخرون، وهي التي تكون وصفاً للكلمة أو الكلام، وذلك بخلوه من العيوب كالغرابة والثقل ومخالفة قواعد اللغة، لكن الفصاحة التي قصدها تشمل في مفهومنا نظم الكلمات بعضها مع بعض، وهي ملحوظة قيّمة وخطوة ذات شأن خطاها في إبراز نظرية النظم[1].

ويرى القاضي عبد الجبار أن الإعجاز ليس في نظم الكلام، وهو يعني بالنظم ورود الكلام على طريقة مخصوصة، أي: القالب الشكلي الذي جاء عليه القرآن وليس النظم الذي تحدّث عنه الخطابي، أو عند الجرجاني[2].

ويقول القاضي إنَّ ذلك ليس وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز، لأنَّه لو كان كل قالب جديد معجزاً، لكان ينبغي أن يكون أول ما قيل من الشعر معجزاً، لأنَّه لم يعرف من قبل. ويرى أن القرآن ليس معجزة العرب وحدهم، وإنَّما هو معجزة لسائر الناس كذلك، وأنَّ العجم وإن لم يعرفوا مزايا الفصاحة، لكنهم عرفوا عجز العرب الذين هم أهل الفصاحة بسليقتهم، وهذا كاف في إقامة الحجة عليهم[3]. وتناول أيضاً موضوع الإخبار عن الغيب ويرى أنَّه لا يصلح وجهاً من وجوه الإعجاز، لأنَّ التحدي كان لسورة من سور القرآن، وكثير من هذه السور ليس فيها شيء من أنباء الغيب[4].

---

(١) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي: ١٤٩.

(٢) ينظر: المغني: ١٩٨/١٦.

(٣) ينظر: المغني: ٢٩٤/١٦، وينظر: البلاغة تطور وتاريخ: ١١٧.

(٤) المصدر السابق: ٢٢٠/١٦.

ويتناول قضية الصرفة، فيقول: إنَّها لا تصلح أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز وقد أطال الحديث عن هذه القضية، وأتى على الشبهات التي يمكن أن تعرض في هذا الأمر[1].

وبهذا الحديث نجده يتفق مع الخطابي والباقلاني في القول بأنَّ الصرفة ليست من وجوه الإعجاز، وهو بذلك يخالف الرمّاني المعتزلي، كما يتفق مع الخطابي في إنَّ الإخبار بالغيب لا يصلح وحده أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، وهو بذلك يخالف الرمّاني والباقلاني في هذا الكلام فلا يعد القالب اللفظي وجهاً من وجوه الإعجاز، وهو بذلك يتفق مع الخطابي. ولهذا نقول بأنَّ الفصاحة التي قال بها القاضي عبد الجبار لا تخرج عن النظم الذي قال به الخطابي والجرجاني[2].

المطلب الثالث: دلائل الإعجاز للجرجاني وأثر نظرية النظم في الإعجاز

عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ):

هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني[3] واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، وله شعر من كتبه (أسرار البلاغة)، (دلائل الإعجاز)، (الجمل في النحو)، (المغني في شرح الإيضاح) توفي عام ٤٧١هـ. وقد تصدّر -رحمه الله- مجالس العلم وقصده الطلاب من شتى الأقطار. ويعدّ إمام البلاغيين وشيخ البلاغة، وكان -رحمه الله- متكلماً أشعرياً[4] كان لعبد

---

(١) المصدر السابق: ١٦/٢٢٠.

(٢) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي: ١٤٤.

(٣) وفيات الأعيان: ٢/٣٦٩، وينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو: ١٣٤.

(٤) ينظر: عبد القاهر الجرجاني: ١٢، الإعجاز البياني: ١٢٩٤-١٢٩٥.

القاهر الجرجاني نتاج جيد يعنينا منه ما يتصل بإعجاز القرآن الكريم ومن أبرزها الرسالة الشافية ودلائل الإعجاز.

أما الرسالة الشافية: فهي جزء صغير عرض فيها لبعض القضايا التي تتصل بالإعجاز، وبدأ الرسالة بذكر أنواع المعاني التي تحتاج إلى نوع معين من الألفاظ، وربط الأنواع المتساوية مع ألفاظها مفردة. بل الألفاظ تنظم إلى المعاني التي تلائمها، وأن تنتظم الألفاظ في عبارة، أو لا تنتهي عند هذا الحد، بل لابد من تأدية هذه المعاني بعد تلبسها بالألفاظ، والألفاظ تتواءم في عبارات. وكذلك أثبت عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه، وناقش فيها القائلين بالصرفة، كل ذلك بأسلوب قوي متين[1]. ولقد عمد عبد القاهر إلى البحث عن البلاغة ووجوهها وأساليبها للارتقاء بالذوق البلاغي، ثم ليضع يده على موطن البلاغة في كل كلام بليغ سواء كان شعراً أو نثراً. ويبرز وجه الحُسن في الكلام من خلال أمثلة مختارة. ثم يلتفت إلى إعجاز القرآن الكريم ورأيه في ذلك.

وقد شعر الجرجاني بأنَّ السابقين الذين كتبوا في نظم القرآن وبيان إعجازه أكثروا من الحديث عن الجانب اللفظي، ولم يتناولوا جانب المعاني، فحصر جهده وكتاباته على جانب المعاني حيث يقول: «... وإذا ثبت أنَّه في النظم والتأليف، وكنا قد علمنا أنَّ ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وإنّا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلمة المفردة مسلكاً ينظمها، وجامعاً يجمع شملها ويؤلفها، ويجعل بعضها من بعض، غير توخي معاني النحو وأحكامه طلبنا من كل محال دونه»[2].

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: المقدمة، ودراسات في الإعجاز: ١١٣/٤.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٧.

ونجد إنَّ كتاب (دلائل الإعجاز) كتاب وثيق الصلة بإعجاز القرآن الكريم البلاغيّ، فقد وضع فيه نظريته في النظم، وهو أساس الإعجاز عنده.

ولهذا يعدّه العلماء المحدد لمعالم هذه النظرية عند الأشاعرة، وقد عقد فيه فصلاً ضمَّنه رأيه في إعجاز القرآن الكريم؛ وبيَّن فيه أنّ الوصف الذي وقع به الإعجاز هو: نظم القرآن العجيب، وتأليفه البديع، على نمط لم يُعهد عند العرب، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله، وهم فرسان البلاغة وشيوخ الفصاحة[1]. ويقول الجرجاني: «فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه، لم يبق إلا أن يكون في (النظم) ؛ لأنَّه ليس من بعد ما أبطلناه أن يكون فيه إلا (النظم) و(الاستعارة) ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز، وأنَّه يُقصَر عليها؛ لأنَّ ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أنَّ (النظم) مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه...، وكنا قد قلنا أن ليس (النظم) شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم»[2].

ونجد إنَّ الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) بدأ حديثه عن أهمية علم البيان ومنزلته بين العلوم، وعن أهمية الأدب والشعر، ناعياً عن الذين لا يدركون ما لعلم البيان من فوائد مكتفين بالوقوف عند ظواهر الأمور، ليس عندهم إلا التقليد وبيّن لهم أنَّهم ماداموا على هذه الحالة، فلن يستطيعوا أن يتذوقوا كتاب الله، ولن يدركوا إعجاز القرآن إدراكاً يقوم على أسس صحيحة وقواعد ثابتة.

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني: ١٢٩٥، ونظرات في الإعجاز: ٨٨.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣١: ص٣٩١.

ويقول الجرجاني في بيان أهمية الفصاحة والبيان: لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة، والبلاغة، والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها، فأجد ذلك كالرمز والإيحاء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبئ ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه، ووجدت المعول على أن ههنا نظماً وترتيباً وتأليفاً وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأن سبيل هذه المعاني الكلام التي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها[1].

❑ نظرية النظم: (معنى النظم):

هو توخي معنى النحو وأحكامه فيما بين الكلمات والجمل والفقرات، فالكلمات في الجملة لا يجمع ويؤلف بينها إلا النحو، وجعل البلاغة من: مجاز واستعارة وكناية وتمثيل من لوازم النظم ومقتضياته[2]. وبيان ذلك: أننا حينما ننطق بالكلمات والجمل، فلابد أن تكون مرتّبة ترتيباً مقبولاً معقولاً.

والكلمة كما نعلم: اسم وفعل وحرف، فلا يمكن أن يكون الترتيب بين حرف وحرف، وكذلك لا يجوز الترتيب بين الفعلين، فلا يمكن أن نقول: (أخذ مشى)، لأنَّ مثل هذه لا تكون جملة مفيدة، وهي مرفوضة كما بينتها قواعد النحو. فهذه هي الخطوة الأولى في النظم، وهو أن يكون موافقاً لقواعد النحو، أما الخطوة الثانية: فهي أن يكون هذا النظم دقيقاً، بحيث ترتب المعاني التي تريدها في نفسك أولاً، ثم تختار لها بعد ذلك الألفاظ التي تتفق مع هذه المعاني[3]. ولهذا نجد

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ٦٦-٦٧.

(٢) ينظر: الإعجاز في نص الخطاب: ٤١٠.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٦٩.

إنَّ المعاني التي نجدها في نفوسنا كثيرة، ويجب التعبير عنها بألفاظ يفهمها المخاطبون، فمثال ذلك:

قد تذهبين لزيارة صديقتك سعاد في أيام الامتحانات فينكر عليك والدك هذه الزيارة فيقولان: «أتزورين سعاد؟» ويمكن أن يقال أيضاً: «أسعادً تزورين؟». الجملتان سواء من حيث اللفظ، لكنهما اختلفا من حيث النظم، التقديم والتأخير، وعليه فلابد أن يكون لكل منهما معناها الخاص. فإذا كان إنكارهما للزيارة، لأنَّ الوقت غير مناسب، ولأنَّ الظرف هو ظرف الامتحانات فيجب أن تكون الجملة هكذا «أتزورين سعاد؟».

أما إذا كان إنكارهم لزيارتك؛ لأنَّهما لا يريدان أن تكون علاقة بينك وبين سعاد، فيجب أن يكون نظم الجملة هكذا «أسعاد تزورين؟». وهكذا نرتب المعنى الذي نريد أن نتحدث عنه، ثم نرتب الألفاظ التي نريد أن نعبّر عنها[1].

وهكذا ندرك أن النظم لابد له من عمليتين اثنتين هما:

أولاً: ترتيب المعاني في النفس.

ثانياً: ترتيب الألفاظ في النطق.

وندرك أيضاً أن النظم شيء غير اللفظ والمعنى[2].

ومثال آخر: يبيّن الفرق بين قولي: «لا ضجة في الحجرة المجاورة» و«ليس في الحجرة المجاورة ضجة»، فإن معنى الجملة الأولى نفي الضجة من الحجرة، أما الجملة الثانية فتفيد أمرين اثنين:

---

(١) عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية: ٨١.

(٢) ينظر: مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز: ص ٣٨.

أولاً: نفي الضجة في الحجرة أيضاً.

ثانياً: إثبات الضجة في حجرتنا أو في حجرة أخرى.

وهذا هو النظم الذي عناه الجرجاني من ترتيب الألفاظ في النطق حسب ترتيب المعاني في النفس[1].

ونلاحظ نظريته في النظم إنما هو: نظم للمعاني، والمتكلم يقتفي في نظم كلماته آثار المعاني، ويرتبها على بحسب ترتيب المعاني في النفس، وبذلك يخالف رأي المعتزلة في التمسك في النظم باللفظ، ويقول: «لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على جذورها لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسب النظم»[2] فالبلاغة في رأي الجرجاني لا تعود إلى الألفاظ من حيث هي ألفاظ مقروءة، وإنما تعود إلى معانيها بعد أن يلتئم شملها في نظم[3] حيث يقول: «إنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مقروءة، وإنما الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»[4] ويقول أيضاً: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأوصله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها»[5].

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٨١، وإعجاز القرآن: ٧٢.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣١: ص٤٣.

(٣) ينظر: نظرات في الإعجاز: ٨٩.

(٤) دلائل الإعجاز: ٣١.

(٥) المصدر السابق: ٣١.

❑ القواعد التطبيقية لنظرية النظم:

إنَّ القواعد التطبيقية التي ذكرها عبد القاهر الجرجاني لشرح نظريته كثيرة، عقد لها فصولاً كثيرة منها: التعريف والتنكير، والتأكيد، والحذف والذكر، والفروق بين الخبر، والتقديم والتأخير، والقصر والفصل والوصل، وإلى غير ذلك. وفي هذه الفصول يذكر تطبيقات عملية من آيات القرآن الكريم، ومن الشعر ليبرهن على إنَّ النظم هو الذي يرجع إليه فضل الكلام[1]. ويرى الجرجاني أنَّ النظم لا يظهر في الكلمة إلا بحسب موقعها في الجملة، فكذلك الجملة لا يبين حسن نظمها إلا إذا ائتلفت بدورها مع جاراتها، فيما تهدف إليه هذه الجملة جميعاً من معنى حتى يتألف من مجموع هذه الجمل صورة أدبية شاملة، قد أعمل فيها الفكر حتى صدرت عن رؤية وأناة. ولم يكن الجرجاني ليتحدث عن نظريته في الإعجاز القرآني دون تعليل لها أو تدليل عليها بل كان يدعم دائماً فكرته بما يستعرضه من مختلف النصوص الأدبية، وكان أيضاً يفترس الأساليب ويتأمل بذوقه وحيها، ثم يقوم بتسجيل وتحليل ما توصّل إليه من نتائج هذا التأمل[2].

وكان الأسلوب القرآني من أوائل ما استشهد به تطبيقاً لفكرته ثم أتبع ذلك بسيل من النصوص الأدبية، وخاصةً الشعر تأكيداً لما رآه من إن الوقوف على الشعر وهو ديوان العرب مما يعين على فهم حجة الله والتعرّف عليها.

وكانت بدايته الدراسة التطبيقية التحليلية تطبيقاً لفكرة الجرجاني في النظم ولهذا نجده يقول في:

---

(١) ينظر: البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني: ٢٣٩.

(٢) ينظر: النقد الأدبي: ١٤١.

١- **التعريف والتنكير**: حيث يمثل بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[1] حيث لم يقل على «الحياة» حيث تفسير التنكير من إنَّ اليهود يحرصون على الحياة أيّاً كانت ذليلة حقيرة، فيها هوان وصغار.

٢- **التقديم والتأخير**: ففيه يشير إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾[2] حيث قدّم الضمير (أنت) على الفعل (قالوا أأنت فعلت) حيث جاء نظم الآية هكذا، ولم يقدّم الفعل فيقال: (أفعلت هذا). وسرُّ ذلك أننا نقدّم ما هو مشكوك فيه، أما الأمر المتعين فلا يجوز أن نقدّمه، فإذا كان الشك في الاسم قدّمناه، وكذلك في الفعل قدّمناه، فإذا جلست في بيت أحد الناس فلا يجوز أن أقول: (أبنيت هذا البيت؟) لأنَّ البناء قد تمَّ، وإنَّما أقول له: (أأنت بنيت هذا البيت؟).

ولهذا نستطيع أن نفهم الآية على هذا النحو، فالأصنام قد حُطمت، ولكنهم يريدون أن يقرروا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – قام بتحطيمها، فجاء نظم الآية هكذا «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟»[3].

٣- **أسلوب القصر**: ففيه يبيّن سرّ النظم في آيات كثيرة مثل قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٢.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ٨٩، والنقد الأدبي: ١٤٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٨.

فمعنى الآية: أن المؤمنين وحدهم هم الذين يعمرون مساجد الله لا غيرهم، ولو قيل: «إنما يعمر المؤمنون مساجد الله» لكان المعنى أن المؤمنين يعمرون المساجد ولا يعمرون شيئاً آخر، وهذا غير صحيح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فمعناه أن أعظم علامات الإيمان الإخوة، فالمؤمنون إخوة لا متقاطعون ولا متعابرون، ولو قيل: إنَّما الإخوة المؤمنون، لكان المعنى أنَّ رابطة الإخوة لا تكون إلا بين المؤمنين وحدهم، وهذا غير صحيح.

٤- **الفروق بين الخبر**: يفرق بين قولنا: (زيد منطلق) و(زيد المنطلق) و(المنطلق زيد) فإنَّ كل من هذه العبارات لها معنى غير صاحبتها، وهذا هو النظم.

٥- **في الفصل والوصل**: ومعنى الفصل: ترك العطف بالواو ويمثل له بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] حيث جاءت كل جملة من هذه الجمل غير معطوفة على سابقتها؛ لأنَّ بينها اتحاداً في المعنى[2].

ولهذا نجد أنَّ الجرجاني يحرص كل الحرص على شرح نظرية النظم، ويبذل قصارى جهده، مبيناً أنَّ إعجاز القرآن إنَّما هو لهذا النظم البديع الذي بهر العرب وأعجزهم أن يأتوا بمثله، إذن فالنظم عند الجرجاني هو سر الإعجاز، أما أنواع المجاز والاستعارة والكناية فمع ما لها من شأن إلا إنَّ الفضل يرجع فيها إلى النظم، ويمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١-٢.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٨٧-٨٨.

﴿شَيْبًا﴾[1]. فالاستعارة في قوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ﴾ فالاشتعال كما نعلم للنار، لكن شبّه انتشار الشيب بالاشتعال. ولهذا يرى الجرجاني أن الفضل للنظم، لا للاستعارة وحدها، فلو أبقينا الاستعارة وغيّرنا النظم فقيل: واشتعل شيب الرأس، لم يكن للكلام هذا الفعل، وإنما يكون الفضل أن أسندنا الاشتعال إلى الرأس، وجعل كلمة شيباً تميز، وهو تمييز محول عن الفاعل كما يقول النحويون، لأنَّ الأصل (اشتعل شيب الرأس)[2].

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾[3] التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس، وقد جعل بذلك من معنى الشمول هاهنا مثل الذي حصل هناك، وذلك أنَّه قد أفاد أنَّ الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو أجري اللفظ على ظاهره، فقيل: وفجّرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض، لم يفد ذلك، لكن المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة من الأرض، وتبجس من أماكن منها[4].

❑ وجه إعجاز القرآن عند الجرجاني:

ويبين عبد القاهر الجرجاني الأمر الذي بان به إعجاز القرآن الكريم فتحروا به فعجزوا أن يأتوا بمثله، فهو يضع عدة أمور يحتمل كل واحد منها

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٨٩، وينظر: إعجاز القرآن: ٧٧-٨٨، ومباحث في إعجاز: ٩٢.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٢.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٩١، والإعجاز في دراسات السابقين: ٢٥٩، وينظر: مباحث في إعجاز القرآن: ٩٣.

أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز:

١- **الاحتمال الأول**: أن يكون الذي أعجزهم كلمات القرآن وألفاظه المفردة، يرد الجرجاني هذا القول؛ لأنَّ معنى كون هذه الألفاظ معجزة جهل العرب بها قبل نزول القرآن، وأنهم لم يسمعوها إلا بعد أن نزل بها القرآن وهذا غير مقبول؛ لأنَّ ألفاظ القرآن الكريم لا يجهلها العرب، ولهذا لم تكن غريبة عليهم.

٢- **الاحتمال الثاني**: أن يكون وجه الإعجاز ما في القرآن من استعارات، ويرد الجرجاني هذا القول: بأنَّ استعارات ليست في جميع الآيات القرآنية، فكثير من الآيات ليس فيها استعارة، ويلزم هذا القول أن تكون الآيات الخالية من الاستعارة غير معجزة، وهذا أمر مجمع على رده[١].

٣- **الاحتمال الثالث**: أن يكون وجه الإعجاز الفواصل القرآنية، ويرد هذا الاحتمال؛ لأنَّ الفاصلة مثل القافية في الشعر، ولقد برع القوم في الشعر، ومن برع في الشعر وقوافيه لا يعجز أن يجعل للكلام خاتمة تشبه القافية[٢].

٤- **الاحتمال الرابع**: أن يكون الذي أعجز العرب معاني الكلمات، وهذا مردود، لأنَّه يلزم أن يكون لكلمة معنى قبل نزول القرآن، وأن يكون لها معنى آخر تجدد بنزول القرآن، وهذا غير مقبول؛ لأنَّ معنى الحمد، والكتاب، والفلاح، والفساد، والربى والأرض والسماء وغيرها فإنَّ معناها قبل نزول القرآن وبعده شيء واحد.

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٩٨، ينظر: إعجاز القرآن: ٨١.

(٢) ينظر: البيان في إعجاز القرآن: ٥٣.

٥- **الاحتمال الخامس**: أن يكون سبب عجز العرب القالب الشكلي الذي جاءت عليه الكلمات القرآنية، وبيان ذلك أنَّ كلام العرب ليس نوعاً واحداً، فمنه الشعر ومنه الرجز، ومنه السجع، والبنية الشكلية التي جاء عليها القرآن تختلف عن كل ما ألفه العرب. ويرد عبد القاهر هذا الاحتمال؛ لأنَّ من ركّب جُملاً تشبه الجمل القرآنية حريّ أن يكون كلامه معجزاً[١].

فهذه نظرية عبد القاهر الجرجاني التي امتازت بعمق التحليل، وحسن السبك، وصحة الترتيب ودقة الموضوع، ولقد برز فيها جانبان اثنان: الجانب النفسي أولاً، والجانب الفكري ثانياً.

أما الجانب النفسي: فيظهر في عمق التأثير الذي يحس به القارئ وهو يتأمل ويتدبر الكلام البليغ وفي مقدمته الآيات القرآنية.

أما الجانب الفكري: فنجده في العلاقة بين المعاني بعضها مع بعض من جهة، وبينها وبين الألفاظ لا من حيث الوضع فحسب، بل من حيث الوضع والترتيب كلاهما[٢].

❁ ❁ ❁

(١) ينظر: عبد القاهر الجرجاني ونقده: ١٨٩.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٨٢.